

## مستقبل الإمبراطورية الأمريكية

د. محمد عبد العزيز ربيع

مما لا شك فيه أن أمريكا بدأت تتصرف منذ استيلاء الرئيس بوش على الحكم في عام 2001 كإمبراطورية عظمى رأت أن من مصلحتها أن تستغل الفرصة التاريخية التي سنحت لها للسيطرة على العالم، وذلك بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة وإفلاس الماركسية. وفي ضوء تلك التطورات الهامة اتجهت الإدارة الأمريكية إلى رسم سياسة جديدة تقوم على أربعة محاور: ملئ الفراغ الذي خلفه الاتحاد السوفيتي بعد تفككه، الحيلولة دون وقوع حرب باردة أخرى وذلك من خلال العمل على الحيلولة دون تبلور قوة عالمية منافسة جديدة، التوجه نحو فرض قيمها ونظام حياتها على الغير من الدول من خلال تنصيب الديمقراطية والرأسمالية كنظام حكم واقتصاد وحيد في العالم بلا منافس، توظيف إمكانياتها العسكرية لتعزيز مواقعها الاقتصادية بسرعة والسيطرة على مصادر الطاقة في منطقة الخليج العربي.

حين انهيار الاتحاد السوفيتي قبل حوالي 17 عاما لم تكن هناك قوة كبرى أخرى تملك إمكانيات عسكرية واقتصادية تؤهلها للتنافس مع أمريكا في الهيمنة على العالم. فروسيا وريثة الاتحاد السوفيتي كانت في وضع سياسي واقتصادي واجتماعي مهلهل جدا، وأوروبا كانت تخوض غمار معركة سياسية ودستورية مضنية من أجل تدعيم وحدتها السياسية والثقافية، مما جعلها غير معنية وغير مؤهلة لأن تكون قوة عظمى منافسة. أما الدول الأخرى التي تملك موارد بشرية وطبيعية ذات إمكانيات كبيرة، وفي مقدمتها الصين والهند، فلم تكن في وضع اقتصادي أو عسكري أو اجتماعي أو تكنولوجي يسمح لها في حينه بفرض نفسها على الساحة الدولية كقوة عظمى. لقد كانت تلك الدول ولا تزال بحاجة لوقت طويل قبل أن تصل إلى وضع اقتصادي وعسكري وسياسي يمكنها من الادعاء بأن لديها مصالح تفرض عليها أن تتعامل مع الغير من الدول كقوة عظمى، وأن تتوقع منهم أن يتعاملوا معها على ذلك الأساس.

وهذا يعني أنه حين تولى الرئيس بوش إدارة الإمبراطورية الأمريكية كانت بلاده تملك من الإمكانيات البشرية والطبيعية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية مقارنة بغيرها من دول كبيرة أخرى ما يكفي لتنعم بدور الإمبراطورية لعقود دون منازع. إلا أن قيام إدارة بوش بارتكاب حماقة كبيرة في العراق، وارتكاب

كل الأخطاء الممكنة في إدارة الاحتلال بعد القضاء على نظام الرئيس العراقي السابق، جعلها تفقد الكثير من مقومات الإمبراطورية. لقد فقدت أمريكا، بين أشياء أخرى، جزءا مهما من قوتها القتالية وإرادتها على الحرب وترسانتها الحربية، وخسرت أكثر من 500 مليار دولار على حرب عادت عليها بكوارث إنسانية وسياسية، وخسرت ثقة الأصدقاء والأعداء بها وبمصداقيتها على الساحة الدولية. وهذا من شأنه، وذلك كما حدث بعد هزيمة أمريكا في فيتنام، أن يحرم حكام ورؤساء أمريكا لعقود قادمة من الدعم الشعبي المطلوب للقيام بشن حرب جديدة سعيا لطموحات إمبراطورية.

إن خلو الساحة الدولية من دولة عظمى في مقدورها منافسة أمريكا في الوقت الراهن، لا يعني أن تلك الساحة ستبقى على ما هي عليه حتى تتغلب أمريكا على عقدة العراق بعد جيل أو جيلين، ومن ثم تعود لممارسة دورها الإمبراطوري الذي بدأته في عام 2003 بغزو العراق. لقد كان بإمكان أمريكا أن تستخدم قوتها المعنوية والأخلاقية والإعلامية وما لديها من مغريات اقتصادية وتكنولوجية لإقناع غالبية دول وشعوب العالم بتبني نظام حياتها والكثير من قيمها. وهذا هو بالفعل ما حاول الرئيس الأمريكي السابق كلينتون أن يفعله، خاصة أثناء فترة رئاسته الثانية، إذ اتجه لممارسة دور إمبراطوري تمثل في قيادة حكيمة وعادلة، تحب للسلام وتعمل من أجل تحقيق العدل واستتباب الأمن في العالم، وتبدي اهتماما بالغا بحماية البيئة ومساعدة الفقراء ومحاربة الأمراض المعدية وغير ذلك.

إلا أن وصول بوش إلى الحكم في ظروف شابها طغيان الإرهاب الدولي والاعتداء على مدينتي نيويورك وواشنطن دفع الرئيس بوش إلى ارتكاب حماقة غزو العراق، والتصرف بطريقة غير عقلانية امتزجت فيها العنجهية بالجهل، مما جعل نتائج الحرب كارثية بالنسبة لأمريكا والعراق على حد سواء. وتشير التقارير إلى أن الرئيس بوش قال لوزرائه في أول اجتماع لهم في البيت الأبيض بعد أن تسلم مهام عمله بأيام أنه لا يريد أن يفعل شيئا فعله كلينتون، أي أنه يريد أن تكون إدارته النقيض لإدارة الرئيس كلينتون. وحين قام كولين باول وزير خارجيته حينئذ بتذكيره بأهمية قضية فلسطين وبأن إهمالها من شأنه أن يتسبب في تدهور الأوضاع الأمنية وزيادة حدة الاضطرابات في منطقة الشرق الأوسط، قال بوش "دعها تتدهور لأنها إذا لم تسوء أكثر فلن تتحسن".

إن حرب العراق والتصرف بجهل وعنجهية تجاه بقية دول وشعوب العالم جعل أمريكا تتبوأ المكانة الثانية بعد إسرائيل في ترتيب الدول الأكثر تهديدا للأمن والسلم العالمي. وفي استطلاع آخر للرأي العام العالمي، قالت الأغلبية إن إسرائيل وأمريكا تأتيان في المرتبتين الأولى والثانية من حيث الأثر السلبي على مجمل الأوضاع في العالم. وهذا يعني أن أمريكا فقدت كل ما كان لديها من مصداقية واحترام عالمي، وأنه لم يعد

بإمكانها أن تقود باستخدام قوتها الأخلاقية وجاذبية نظام حياتها الاقتصادي الديمقراطي، وذلك بعد فقدان إرادتها على القتال وشن حروب استباقية عدوانية. وقبل أن تكون أمريكا قد تغلبت على عقدة العراق، من المؤكد أن تكون أربعة دول أخرى على الأقل قد بلغت مرحلة من القوة الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية لفرض نفسها على الساحة الدولية كقوى عظمى.

وهذا يعني أن الإمبراطورية الأمريكية دخلت مرحلة التراجع، وأنه لن يكن باستطاعتها العودة إلى الدور الإمبراطوري في المستقبل القريب. وبينما تتراجع قدرات أمريكا على القيام بدور إمبراطوري، تتنامى قوى الدول الأخرى ذات الإمكانيات الكبيرة، وهي روسيا والصين والاتحاد الأوروبي والهند، خاصة وأن التنافس في العصر المعرفي الزاحف بسرعة سيكون على أساس اقتصادي وتكنولوجي ومعرفي، وليس على أساس عسكري بحت. وهذا من شأنه أن يخلق حالة من توازن القوى بين خمسة دول كبرى، وأن يجعل قضايا السلم والاستقرار والعدالة لا تخضع لرحمة ومزاجية ومصالح رجل واحد يجلس في البيت الأبيض في واشنطن. وفي ضوء ما تقدم، يمكن الجزم بأن عهود الإمبراطورية قد ولت تماما وانتهت إلى غير رجعة، وأن أمريكا هي آخر إمبراطورية يعرفها التاريخ.

professorrabie@yahoo.com

د. محمد عبد العزيز ربيع

لنشر يوم 10-4-2007

[www.yazour.com](http://www.yazour.com)